النزوع الأسطوري في الشعر الجزائري المعاصر

ديوان الحب في درجة الصفر لعبد العالي رزاقي نموذجا

The mythical tendency in contemporary Algerian poetry, Diwan al-Hob, in the zero degree, by Abdelali Razaki is a model

الدكتور بووشمة معاشو

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة

glocalchou@gmail.com

0671121608

الملخص

ينطلق البحث من محاولة البحث عن أهمية توظيف الأسطورة في الشعر ويهدف إلى إبراز جدوى وكيفيات توظيفها، بحث يجيب عن أسئلة ظلت مطروحة في ساحة النقد الأدبي الحديث وهي ما دور الأسطورة في الشعر وهل حقق الشاعر مبتغاه ؟ وكيف تجلى ذلك في الشعر الجزائري، وتوصل إلى الوقوف على كنه ذلك التوظيف الخلاق من أجل توحيد الموقف وبلورته بمعية القارئ، ومشاركته الجمعية لتحقيق الموقف الموحد اتجاه القضايا المختلفة.

The research starts from the attempt to search for the importance of employing the myth in poetry and aims to highlight the feasibility and methods of employing it, research answers questions remained in the arena of modern literary criticism, which is the role of the myth in poetry and has achieved the poet? And how this was reflected in the Algerian poetry, and reached a stand on but that creative

employment in order to unify the situation and elaborate with the reader, and his participation to achieve the common position towards the various issues.

كلمات مفتاحية
الأسطورة، تقنيات التوظيف، الشعرية، الإيحاء، القناع.

Myth, recruitment techniques, poetry, suggestion, mask.

يعتبر العمل الأدبي ابنا شرعيا لمصادر مختلفة ونصوص سابقة تتضافر لتشكل بنيته،حيث تلتقي أزمنة شتى وثقافات مختلفة في كل عمل أدبي، وخاصة الشعري منه لتنتج معارفه، ومن حيث كونه مجموعة مصادر أولية وثقافات مختلفة منها الأدبي والتاريخي والديني والشعبي والأسطوري ،التي تتشابك متداخلة في تكوين لحمته ، ونسيجه الداخلي.كونها تنبع من حضورها في الثقافة الجمعية.ويعتبر الشعر نافذة على الحياة الاجتماعية يعبر عن ألامها وتطلعاتها،وبذلك أخذت الذائقة الشعرية الجزائرية على عاتقها مسؤولية محاولة تمثل وفهم روح العصر، فلجأ الشعراء إلى الإسقاط الأسطوري على الحياة الاجتماعية كأهم نزوع نحو ما هو رمزي وحداثي. "...تفطن الشعراء الجزائريون منذ وقت مبكر أيضا إلى ما في الأسطورة من قيم فكرية، فنظموا قصائد يستلهمون فيها الأساطير العربية واليونانية ..." [52]، والذي يمكنه التعبير عن تطلعات الجماهير في مواجهة القمع والكبت والانكسار.

الأسطورة في الشعر الجزائري

يعج الشعر الجزائري بالتجارب والمحاولات التي سارت في هذا النهج ،وإن كانت بتفاوت من حيث الكثافة والعمق والكثرة أو القلة،وتراوح الاستخدام من حيث التقنية التي هي"...مجموعة الطرائق والأساليب التي يلجأ إليها الشاعر المعاصر في استخدام الشخصية التراثية للتعبير بها، ومجموعة الأشكال

والصيغ الفنية التي يتبلور فيها هذا الاستخدام، ومجموعة التصرفات التي يتصرفها بالنسبة للشخصية التراثية، بهدف تطويعها للتعبير عن التجارب المعاصرة التي يوظفها الشاعر للتعبير..." [1].

على مستوى المنجز من الشعر الجزائري يكفي أن نطل على شعر "أحمد حمدي" لنكشف رمز العنقاء أو رمز الموت والانبعاث في قصيدة **الشهيد الذي لم يمت** من ديوانه:**قائمة المغضوب عليهم** أو في ديوانه الثاني:**انفجارات** ، و"حمري بحري" يستخدم رمز سيزيف في قصيدة **سيزيف لم يمت** ضمن ديوان:**ما ذنب المسمار يا خشبة**، ثم "أزراج عمر" يحتفي برمز الصلب على شاكلة الشاعر صلاح عبد الصبور في ديوانه **وحرسني الظل** ،ولا يتخلف "الأزهر عطية" عن مواكبة الركب في ديوان:**السفر إلى القلب** ،ويأتي رمز السندباد مشاكلة ل"عبد العالي رزاقي" في ديوان "محمد بن مريومة":**المغني الفقير** .ويليهم "أحمد عاشوري" في:**أزهار البرواق** و"أبو القاسم خمار" في: **ربيعي الجريح** ولا يمكن الإحاطة بالكل إلا في دراسة شاملة ،دون أن ننسى "إدريس بودیبة" في ديوانه: **أحزان العشب والكلمات**.حيث تعتبر أهم الدواوين التي تناولت الأسطورة كعنصر فني في قصيدة أو أكثر.

الأسطورة في شعر عبد العالي رزاقي

وتأتي قيمة توظيف الأسطورة في توظيف رموزها وشخصياتها، وينعكس حضور ها ضمن قصائد الشاعر عبد العالي رزاقي في أكثر من اتجاه، فقد تكون محور النص وبؤرته، و يكون اسم الأسطورة مذكورا، أو أن يذكر جزء من الأسطورة، وقد يتكرر اسم الشخصية الأسطورية، و يتم التلميح والترميز بذكر ملمح أو أكثر من ملامحها. ومن الجوانب الأخرى لاستخدام الأسطورة أن يكون المتكلم في القصيدة هو الشخصية الأسطورية، أو شخصية الراوي التي هي شخصية الشاعر.

ومن جهة شكلت الأسطورة "...شهادة يدين بها الشاعر عصره ويحتج عليه من خلالها..." [2] وأداة للتعبير وسجلا حافلا بالثقافة والتواصل.وتعددت تلك الرموز بين الحقل الأسطوري المستمدة من الأساطير العربية واليونانية ، مثل السندباد وسيزيف والعنقاء وطراودة وغيرها،ثم من الحقل التاريخي السياسي

والعسكري مثل معاوية والحجاج وغيره،ومن الحقل التراثي الأدبي والشعبي مثل عنترة والمتنبي ، وكل ما يشكل الذاكرة المشتركة وما تحمله من كثافة رمزية .

المعروف أن شخصية السندباد هي أكثر شخصيات ألف وليلة ظهورا وشهرة، وهي الأكثر استلهاما في الآداب العالمية، ولم يتخلف الأدب العربي عن ركوب موجة التغني بشخصيات ألف ليلة وليلة ومنها شخصية السندباد ،وقد اعترف أحمد عبد المعطي حجازي لصلاح عبد الصبور بأسبقيته في استعمال هذا الرمز "...لعل أول من اكتشف هذا الرمز-السندباد- هو الشاعر صلاح عبد الصبور ،ثم تبناه بعد ذلك عدة شعراء..."[3].كما يعتبر الشاعر صلاح عبد الصبور مكتشفه (رمز السندباد) الأول وأكثر الشعراء إحتفاءا به واستخداما له[4] ، ولا يكاد يختلف الشاعر عبد العالي رزاقي عنه ، خاصة في ديوانه الحب في درجة الصفر[57]، فقد كانت أسطورة السندباد الأكثر استلهاما واستعمالا وبعدة أوجه بالمقارنة مع الأساطير الأخرى.

يحاول عبد العالي رزاقي[5] في هذا الديوان أن يراكم معاناة ماضيه ومكابداته لتحقيق الذات ويستعين بملامح السندباد متقمصا إياه ومتماهيا معه في محاولته للتغلب على المحن والشدائد :

لا ينبغي أن تهتفي باسمي
فقلبي لم يعد يرتاح للماضي
تعبت من الحكايا القديمة والأغاني
كان حبك رحلتي الأولى
وكنتُ السندباد[6]

يكاد يتكرر الموقف حيث يتغلب الشخصي على الأسطوري . فيتطلب الوضع الخروج من الصفة الأسطورية للسندباد واستخدام ملمحها – التحدي ومواجهة الأخطار- إلى صفة المتحدي البطل من أجل الوطن المتخلد في الذاكرة.
وتستحضر شخصية السندباد لتحقيق النسق الدرامي المشابه والمصاحب للموقف :

الريح متعبة وسيف مولاك الأمير ملطخ بدم الخوارج...قاومي
فالنخل ذاكرة الصحارة لا القصور
ووجهك الوضاء علمني التحدي
وَكُنْتِ ذاكرتي
وكان البحر وجه السندباد [7]

يلعب الوعي الجمعي دورا مهما في بلورة المواقف وتوحيدها وخاصة في التقليد الشعري الذي ينتظم فيه الموقف الانساني، فيكاد يجمع الجميع على المشاركة في خلق التصور الموحد عن طريق دمج الأزمنة ، ومن خلال تحقيق بنية سردية تحيل على الفعل وتستحضر الوقائع والأحداث الدالة :

وهي تمر ،ولا انتظرت عودة السندباد ولكنها كبرت
في قلوب الجميع بشاطرهم حبها الزمن المستحيل
توحدت المرأة/ الرجل / الوطن/ الانتماء
وصارت رشيدة تحترف الرفض كالفقراء[8]

ويصف يوسف وغليسي السندباد في شعر رزاقي " ...هو ذلكم الشهيد الذي لا يموت، هو الشهيد النموذجي الذي يتجدد في كل رحلة ..هو المغامر الذي ينأى عن حبيبته الوطن بحثا عنها يتيه في الأعماق القصية ليعود مكللا بالياقوت والمرجان،إرضاء لحب رشيدة ..."[9] ورشيدة هي الوطن:

من كان منكم يعشق الياقوت والمرجان
هذا السندباد يعود يحمله من الجزر البعيدة
للنساء[10]

السندباد هو المناضل الوفي لانتمائه الثوري المهيأ دوما لدفع حياته ثمنا لهذا الانتماء[11] ،ولا يترك رزاقي مناسبة لتوظيف رمز ديني "أيوب"إلا ويقرنه بالسندباد كما فعل االسياب في مجموعته "منزل الأقنان"،حيث يكون الايمان والصبر معينا على مكابدة الأوجاع:

أنا المستحيل الذي يعشق الموت في مقلتيك
أحاول أن أشعر الآن بالانتماء إليك
فأخجل حين أراك

على صدر أيوب نائمة
بينما السندباد يجر إلى المقصلة
أريدك أن تشعري باغترابك
فالحب في لحظات الخيانة كفر[12]

يكون الفضاء الأسطوري استعاريا حين يستجمع عدة عناصر تاريخية ويدمجها في النص فيستحضر اللحظات التاريخية مثل فتوحات معاوية والحروب ودم الشهداء من أجل استحضار أنساق وأزمنة ثقافية والاتكاء على المرجعية التاريخية ،في المواطن التي كانت تسود فيها البطولة ، إذ حينها كانت تتحق التجربة الوجودية والتاريخية:

أريدك أن تشعري باغترابك
فالسفن المبحرات مع الرياح المتعبة
والموانئ مغلقة
والشواطئ مهجورة [13]

استحضار الماضي السحيق جزء لا يتجزأ من اللعب على وتر الحس الأسطوري في الشعر، الشعرية تستنطق الماضي لابتكار المكوقف الابداعي المتوتر، حيث تلعب عملية استحضار اللازمني في الزمني من خلال ثنائية الحضور والغياب فطيب الرحى في شعرية التوتر وانفلات اللحظة من خلال الموقف المتأرجح بين الماضي والحاضر.

وعيون معاوية تترقبنا تتناقل أخبارنا
وسيوف الغزاة ملطخة بدم الشهداء
هل الموج يخضع للريح؟
يسألني زمن تتداخل فيه المواقف
أخلع عن جسدي جلد من يرتديني
أناديك باسمك
فاقتربي
ليس للرفض معنى بدونك

يا امرأة –آه- أعيدها
ويخيل لي أنها الانتماء[14]

وظلت أسطورة سيزيف[15] أكثر حضورا في أكثر من قصيدة على مستوى الاستلهام المتنوع لمختلف أوجهها، وإن كانت القصة تدور حول دورة الحياة وتكرار الأحداث ،في نسق فكري يثير القلق والملل تارة ويثير العزم والمحاولة من جديد في أخرى .وذلك من أجل التعبير عن الضياع والغربة وسط ركام الروتين وتوالي الفواجع في القرن العشرين:

أنا انسان القرن العشرين
حتى نفسي لم أفهمها منذ سنين
لا أعرف دربي من أين
آلاف الأوهام تعشعش في ذاكرتي
حكمت آلهة الزيف
أن أحمل صخرة سيزيف
أن أقبل طوعا أو كرها
تأشيرة منفى[16]

يقرن رزاقي بين قصة يوسف بكل ما تحتويه من عناصر درامية ومواقف بطولية و أسطورة سيزيف بما تحمله من عنصر تكرار المحاولة وعدم اليأس في قصيدة زمن الخوف من نفس الديوان :

تحسست برأسي
ففرت من الرأس أغنية عربية
تذكرت أن زوليخة او من مزقت ثوب معشوقها
و"العزيز" يوزع سبع سنابل للفقراء
فرحت أغني مع الفقراء
لغربتنا وطن
سوف يصلب في القلب كالرعد بين ثنايا الغيوم
وسيزيف يصعد...
يهبط...
في شفتيه ينام نشيد قديم
يا هابط الجبل

فكر في صعودك
يا صاعد الجبل
فكر في نزولك[17]

يتكرر نفس الفعل بشحذ أكثر من رمز أسطوري مثل أوديب والرمز البطولي التاريخي عنترة من أجل خلق الرؤية الدرامية من جهة وتصوير المشهد في مختلف تداعياته من جهة أخرى :

باتت "لدون جوان "
" أوديب "ضاجع أمه
وأنا وأنت نبيعها عذراء
ياوجهي عيون الآن تسرقنا
وعنترة يموت ويولد
ويزف للمنفى مع اللواط واللقطاء[18]

يستنتج المتمعن والدارس لأسلوب عبد العالي رزاقي في استمطار الأسطورة وامتصاص تيماتها، أنه يروم استحضار الموقف التاريخي والبطولي وخلق الصورة الرمزية، من أجل توضيح الموقف الشعوري وتوصيله، يحاول الشاعر توظيف العناصر المشتركة بينه وبين المتلقي والمتمثلة في الأسطورة والمواقف التاريخية ، التي تعتبر انعكاسا للحالات والمواقف المعاصرة وإن كانت بوجوه مختلفة. ويمكن البرهنة على ذلك بميول الشاعر نحو الأساطير والتيمات الأكثر حضورا في الثقافة الجمعية ، من جهة أخرى لم يكن في كل استخداماته للأسطورة موفقا ، فقد اكتفى في الكثير من المرات بذكر الأسماء وإلصاقها بالنص دون أن يكون ذلك لازما، وفي الغالب نجح في تحيين المواقف وتصويرها وتقريبها للقارئ.

الهوامش والتعليقات

1 - محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 1985، ص 57.

2- علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص 239.
3 - إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت 1978، ص6.
4- ديوان خليل حاوي، دار العودة، بيروت، طبعة1، 1976الملحق، ص413 .
5 - مختار علي أبو غالي، سندباد صلاح عبد الصبور، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج24، العدد4، 1996، ص186.
6 - عبد العالي رزاقي، الحب في درجة الصفر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982 ،ط 2.
7 - شاعر جزائري معاصر صدر له عدة دواوين شعرية منها : الحب في درجة الصفر،أطفال بور سعيد يهاجرون إلي ساحة أول ماي ، من يوميات الحسن بن الصباح، هموم مواطن يدعى عبد العالي.
8 - الحب في درجة الصفر، ص105.
9 - نفسه، ص144.
10 - نفسه، ص134.
11 - يوسف وغليسي تأملات نقدية في كتابات جزائرية ، جسور للنشر والتوزيع الجزائر، ط1،2009، ص-114.
12 - الحب في درجة الصفر، ص137.
13 - تأملات نقدية في كتابات جزائرية، ص114.
14 - الحب في درجة الصفر، ص140.
15 - المرجع نفسه، ص131.
16 - ابن ايولوس وملك كورنثة، عاقبه هاديس في العالم السفلي بأن جعله ينقل صخرة إلى أعلى هضبة ما إن تصل حتى تتدحرج إلى السفح ثانية . ماكس شابيرو، رودا هندريكس، معجم الآساطير، ترجمة حنا عبود، دار علاء الدين ،دمشق سوريا، ط3،2008 ، ص-237.
17 - الحب في درجة الصفر، ص98.
18 - المرجع نفسه ، ص106-105.

المصادر والمراجع

1- الكتب

- محمد ناصر الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 ،1985.
- علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997.
- إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت، 1978.
- ديوان خليل حاوي، دار العودة، بيروت، طبعة1، 1976.
- عبد العالي رزاقي، الحب في درجة الصفر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1982، ط2.
- يوسف وغليسي تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1،2009.
- ماكس شابيرو، رودا هندريكس، معجم الآساطير، ترجمة حنا عبود، دار علاء الدين، دمشق سوريا، ط3،2008 .

2- المجلات

- مختار علي أبو غالي، سندباد صلاح عبد الصبور، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، مج24 ، العدد4، 19